مداخلة عن السياسة الخارجية- جامعة القديس يوسف

مفهوم السياسات الخارجية، مفهوم زلق ومتحول لأن العلاقات الدولية قد مرت في مرحلتها الأخيرة- وفي حقبة قصيرة جدًا- بتطورات غيرت سياسات دول، ودخلت إلى غرف الخرائط (التعبير لغسان شربل) فعدلت فيها ما عدلت، وقضمت ما قضمت.

ربما بدات السياسة الخاريجة، كوسيلة علاقات بين الدول والمجموعات، منذ اعتمدت الاتصالات على رسائل يحملها رسول، يعود بالجواب، أو يعود برأس مقطوع أو أنف مجدوع على ما يروى عن الملكة زنوبيا وقصير الذي جدع أنفه لأمر ما.

فما كان على عهد تاليران، مختلف عما كان في أيام كيسنجر، وكذلك ما حصل في الاتحاد السوفييتي، من الانتقال من سياسات اندريه غروميكو إلى إدوارد شيفرنادزه.

الحربان العالميتان شهدتا تسخير السياسات الخارجية للخداع وتوقيع المعاهدات المغشوشة على غرار ما حدث بين تشامبرلين وهتلر، وبين هذا الاخير والمارشال جوزيف ستالين.

توسلت هذه النبذة لأخلص إلى أن العالم كله، لا سيما الدول الصغيرة والضعيفة، تتأثر أمنًا واقتصادًا بل ووجودًا بسياسات الدول الكبرى الخارجية، بما يجعل من المتعذر جدًا انتهاج

سياسة خارجية مستقلة تنأى بها عن الوقوع في طريق الأفيال.

بعد خمس سنوات من نيل لبنان استقلاله، شكل عليه قيام اسرائيل خطرًا حدوديًا، وتوجسًا داخليًا تمثل باللجوء الفلسطيني الذي توزع وجوده على المخيمات في أماكن يسهل معه استغلال اليد العاملة الفلسطينية ببعض النشاطات الاقتصادية.

سياستنا الخارجية آنذاك كانت جزءًا من سياسة جامعة الدول العربية.

بعد إعلان حلف بغداد، انقسمت الدول العربية على نفسها، وآثر لبنان حينها الاقتراب من المحور الغربي، فأدى هذا إلى انتكاسة داخلية، نتجت عنها أحداث مسلحة وانتهت بانتخاب الرئيس فؤاد شهاب رئيسًا للجمهورية؛ تزامن هذا، مع إعلان الجمهورية العربية المتحدة، بما جعل فكرة وحدة الدول العربية قائمة بشدة على الحدود اللبنانية، وداخل شرائح واسعة من الشعب اللبناني. اتوقف هنا لأضرب المثل عن نموذج فريد في السياسة الخارجية، إذ تبنى الرئيس شهاب اقتراح اللوء المرحوم أحمد الحاج، بإقامة الخيمة على طرفي الحدود للقاء الرئيس عبد الناصر، فكان بذلك يرسم سياسة خارجية واسعة الآفاق على مساحة خمسة امتار مربعة فقط لا غير.

وأستطرد هنا لأقول إن الرئيس شهاب لم يكن يوقع اتفاقية انحياز لسياسة الرئيس جمنال عبد الناصر، بل كان يبرم استقرارًا داخليًا، وذلك بتهدئة روع أكثرية المسلمين الذين كانوا يتلهفون لرؤية عبد الناصر في لبنان.

ذلكم مثل على أن المصالح الداخلية أملت على الحكم انتهاج سياسة حسن الجوار، وعدم الانزلاق إلى لعنة المحاور.

هنا نستطيع القول أن لبنان شهد وضعًا مريحًا إلى أن وقعت هزيمة ١٩٦٧ التي لا نزال نحصد نتائجها المدمرة حتى الآن.

مشكلة العرب، بعيد الهزيمة، أنهم لم يصدقوها ولم يستطيعوا استيعاب نتائجها، فذهبوا سراعًا إلى فكرة حرب الشعب، التي تمثلت آنذاك بحرب الفيتكونغ ضد اميركا؛ كثير من النخب العربية أسقطت بصورة متعسفة، المثال الفيتنامي على حالتنا، مع ما هنالك من فوارق شاسعة بين الوضعين، حيث أحرزت حركة المقاومة الفلسطينية بريقًا هائلًا، لم يحتمله النظام الأردني، فكانت أحداث أيلول، حيث خرجت المنظمات إلى لبنان بتسهيل سوري.

ازدوجت السلطة في لبنان فلم تعد لنا سياسة خارجية، فتأثرت مواقفنا بمصالح منظمة التحرير، ثم تلاشت سياستنا الخارجية نهائيًا بعد الدخول السوري، وأصبح قصر بسترس، بشكل أو آخر، صدى أو بعض صدى لما تقوله دمشق. بعد التحرير، ودور حزب الله فيه، تكبلت السياسة الخارجية بقيود الممانعة، فلما تمادى الأمر تخلت الدول العربية عنا،

وأصبحنا وحدنا قاعدة الانطلاق لتحرير فلسطين بمؤازرة إيرانية سخية.

بعد كل كل ما ذكرت مما لم تزل آثاره بادية للعيان، حق لهذا اللقاء أن يطرح السؤال: أي سياسة خارجية للبنان؟

هنا أجد نفسي مقحمًا على اختصاص لست منه، وقد أبلي فيه قبلي معالي الصديق ناصيف البلاء الحسن، ولهذا اكتفي بأن أتحدث بلسان مواطن غير خبير، ولكنه معجون ببارود وويلات وخيبات المراحل منذ العام ١٩٥٨ حتى هذا اليوم، لأقول إن أفضل سياسة خارجية للبنان تقوم على انتهاج سياسة داخلية قويمة. تفسير ذلك أن الدول التي سخرت مواردها الداخلية لخدمة طموحات خارجية رعناء، دفعت ثمن ذلك من وجودها وشهدائها واقتصادها، هزائم منكرة.

فبدلًا من ان يسخر هتلر نهضة الشعب الألماني لأمور السلم، ابتنى اكبر ترسانة عسكرية لخدمة مغامرة أوقعت عشرات ملايين الضحايا ومئات المدن المدمرة.

كذلك الأمر بالنسبة للاتحاد السوفيتي الذي سخر اقتصاده العليل لخدمة حلفائه في العالم، وتامين التوازن بين حلف فرصوفيا والحلف الاطلسي فكان انهيار ذلك الكيان الجبار.

الآن يختل التوازن العالمي، ويتحكم البيت الأبيض بمصائر الحلفاء قبل المنافسين، بل ويذهب بلا أي تحفظ إلى ضرورة ترحيل الفلسطينيين من أرضهم لإقامة المنتجعات على الأرض المخضبة بنجيع الشهداء، ويرخي لأسرائيل العنان لتضرب في لبنان كل يوم، وتديم احتلالها، وتتوسع في عدوانها إلى سوريا التي لم تزل في مرحلة انتقالية غامضة المصير.

أي سياسة خارجية؟

الجواب على ذلك، سياسة داخلية تقوم على وحدة الشعب اللبناني ووحدة السلطة وفق احكام الدستور، وتمتين العلاقات مع الدول الشقيقة والصديقة واحتكار الدولة للسلاح، والخروج من محوري المانعة والمطاوعة، "فليس لبنان الذي يتحمل وزر التطبيع." وورشة إصلاحية حقيقية تستعيد للبنان دوره كمنارة علمية واستشفائية وإعلامية وحضارية، فيكون بذلك محط أنظار الاشقاء والاصدقاء ما يشكل حسن العلاقة معهم ، أفضل سياسة خارجية حصيفة.